الدرس الثامن والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قبض العلم

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: (هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنْ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ)) رواه الترمذي .

****

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ((**بابٌ قبض العلم**)) ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى ليبين ما ورد في السنة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أن العلم يُقبض وأن قبض العلم يكون بموت أهله وحملته ، لا أنه يُنتزع من قلوب الرجال بل يكون قبض العلم بقبض العلماء . وهذه الترجمة كما أن فيها بيانًا لأن العلم يُقبض بقبض العلماء ففيها

أيضًا حث على تعلم العلم والعناية به وحفظه والاجتهاد في ذلك ، لأن الإنسان لا يدري متى يُحتاج إليه في بلده ومنطقته مع كثرة الجهل وقلة العلم فلا يدري متى يُحتاج إليه ، فإذا فرط في العلم وقت تيسُّر تحصيله له ثم تهيأت الحاجة أو حصلت الحاجة إلى لعلم ندم على تفريطه وقت تيسُّر طلب العلم له وتحصيله ، ولهذا يغتنم المسلم وطالب العلم فرصة تهيء طلب العلم له بأن يأخذ منه نصيبًا وافرا وحظًا طيبا ، ثم ينفع الله تبارك وتعالى به فيما بعد من شاء من عباده . قال ((باب قبض العلم)) .

وأورد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: ((**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ**)) أي رفع بصره إلى السماء ونظر إلى العلو .

ثُمَّ قَالَ: ((**هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ فيه الْعِلْمُ**)) أي هذا وقتٌ يختلس فيه العلم أي يُختطف فيه العلم ويؤخذ . والمراد بأخذ العلم: أخذ حملة العلم ونقلة العلم ، وبعض العلماء أخذ أو استنبط من هذا الحديث أن في هذا إشارة إلى دنو أجله صلوات الله وسلامه عليه ، قال ((هذا أوانٌ يختلس فيه العلم)) أي يُختطف فيه العلم ويؤخذ فيه العلم، وليس العلم يؤخذ انتزاعًا ينتزع من صدور الرجال بل يؤخذ بأخذ حملته وموت حملته .

قال: ((**هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنْ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**)) ؛ «منه»: أي من العلم ، لا يقدروا على شيء أي من العلم ، لأنه لا يوجد له حملة ، إذا قُبض رجال العلم وأهل العلم ثم بحث الناس عن العلم لا يجدوا من يبينه لهم ومن يوضحه لهم ، وهذا معنى قوله ((حتى لا يقدروا منه على شيء)) أي لا يقدروا من العلم على شيء لا قليل ولا كثير .

قال رحمه الله تعالى :

وعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه قَالَ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَقَالَ: ((ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ)) ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ! لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا)) رواه أحمد وابن ماجه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه قَالَ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَقَالَ: ((**ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**)) أي عند وقت ذهاب العلم وعدم وجوده ، وعرفنا أن ذهاب العلم يكون بذهاب حملته ونقلته .

فلما سمع زياد رضي الله عنه إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بذهاب العلم أثار تساؤلا قال : ((**قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ!! وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟**)) وهذا فيه

إشارة إلى طريقة تناقل العلم وأن اللاحق يأخذه من السابق ، فيقول كيف يذهب العلم والعلم يُتناقل؛ يأخذه الطلاب عن الشيوخ ، ثم يصبح الطلاب شيوخًا فيأخذه عنه طلابهم وهكذا ؛ فكيف يذهب العلم والحالة هذه؟! فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زِيَادُ**)) أي فقدتك أمك ، وهذه يؤتى بها للتعجب لا لقصد الدعاء على الإنسان بذلك .

قال: ((**إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ**)) أي كنت أعدُّك من أفقه رجال المدينة ، من أكثرهم فقهًا .

((**أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا**)) وهذا فيه أن بقاء العلم ليس بحفظ ألفاظ العلم والنصوص العلمية وكثرة المحفوظات ، ليس العلم هو هذا فقط؛ بل العلم يشمل الحفظ والفهم والعمل ، ويشمل أيضًا الثبات على العلم والرسوخ فيه ، لا أن يكون الإنسان متذبذبا ومتنقلًا، بل العلم يكون بحفظ العلم وفهم العلم والعمل به والرسوخ في العلم ، بعدم التذبذب والتنقل فيه ؛ وهذا يتبين في الفتن التي يكثر فيها تنقلات الناس وتحولاتهم من مذهب إلى آخر ومن رأي إلى رأي مما يدل على عدم الرسوخ في العلم والثبات عليه . فبين له النبي عليه الصلاة والسلام أن العلم ليس بمجرد الحفظ ، قد يكون الإنسان يحفظ القرآن ويحفظ نصيبا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكون من أهل العلم لسببين: أولا لكونه لا يفهم ، وثانيا لكونه لا يعمل ولا يُرى عليه أخلاق القرآن وآداب القرآن وما يدعو إليه القرآن . الحسن البصري رحمه الله تعالى في زمن التابعين تحدث عن بعض القراء الذين اشتغلوا بالحفظ وضيَّعوا العمل قال رحمه الله : «إن أحدهم يقول قرأت القرآن كله ولم أُسقط منه حرفًا» ماذا يقصد؟ أي قرأته قراءة متقنة مجودة مرتلة لم أسقط منه شيئا ، يقول الحسن رحمه «وقد أسقطه والله كله ، لا يرى عليه القرآن لا في خُلق ولا في عمل» قال : «فإن كانت القراء مثل هذا لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء» .

الشاهد أن هذا الحديث يبين أن حفظ العلم لابد فيه من فهم العلم والعناية بضبطه وأن يعيه المسلم قد مر معنا الحديث ووعاها ، ولابد أيضا في ذلك من العمل بالعلم ، وأيضا من الثبات على العلم بترك التنقل والتذبذب والاضطراب .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال : «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ ، وَقَبْضُهُ ذهاب أهله، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَى مَا عِنْدَهُ ، وسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَإِيَّاكُمْ وَالبِدَع وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ» رواه الدارمي بنحوه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه في الحث على العلم قبل أن يقبض ، وهذا يستفاد منه أن النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في بيان أن العلم يقبض أن مما يستفاد من تلك النصوص: الحث على طلب العلم وتحصيله ، والأمر هنا واضح في دلالة النصوص المشتملة على بيان قبض العلم دلالتها على الحث على طلبه وتحصيله ؛ لأن الشيء الثمين النفيس الذي تُخبر عنه بأنه سيأتي عليه ويُقبض ولا يوجد بين الناس حتى لا يبقى منه شيء وهو نفيس عندك وثمين جدا ، فمثل هذه النصوص فيها أعظم حض على طلب العلم وتحصيل العلم ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : ((**عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ**)) لأن الإنسان لو رغب في العلم بعد قبضه لا يجد من يعلِّمه ، وقبض العلم بقبض العلماء ، فيقول رضي الله عنه «عليكم بالعلم قبل أن يقبض» وعرفنا أن قبضه بقبض أهله .

قال: ((**عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ**)) حث رضي الله عنه على العلم وتعلم العلم من جهتين: الجهة الأولى قال «قبل أن يقبض العلم» ، والجهة الثانية قال «لا يدري أحدكم متى يفتقر إليه» ، وهذا أمر يلاحظه كثير من طلاب العلم الذين رحلوا في طلب العلم وتهيأت لهم مجالس علمية جادة في تحصيل العلم وفرطوا في كثير منها ، لما رجعوا إلى ديارهم وبلدانهم واحتاج الناس إليهم أحسوا حينئذ بالتفريط الذي كان منهم والأيام التي ضاعت عليهم ، ويبدأ يندم ويتأسف ويقول كنت في بلد كذا وفيه علماء وكنت مضيعا لتلك المجالس، ولو أنني لازمتهم وحفظت و.. الخ لأفدتُ الناس في هذا الوقت . ولهذا يحث رضي الله عنه على العلم بقوله ((**عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُفتقر إليه**)) يعني متى يحتاج إلى العلم الذي عنده . وإذا ذهب إلى بلده وهم يظنون فيه خيرًا لأنه غاب عنهم سنوات لطلب العلم ثم افتقروا إلى العلم الذي عنده ثم تبين لهم أنه هو وإياهم سواء ما تميز عنهم بشيء ولم يحصِّل علما يفيدهم به . ولهذا ينبغي على الإنسان الذي أكرمه الله وهيأ له طلب العلم وحضور مجالس العلم أن يجتهد في الإفادة العظيمة منها لأنه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه «لا يدري متى يُفتقر إليه»؛ أي لا يدري متى يُحتاج إلى العلم الذي عنده .

قال: ((**لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَى مَا عِنْدَهُ**)) أي ما عنده من العلم .

قال: ((**وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**)) وهذا فيه تنبيه من ابن مسعود رضي الله عنه أن العبرة ليست بالشعارات والدعايات، وما أكثر الدعايات في كل زمان وأوان ، فليست العبرة بمجرد الدعايات كأن يرفع الإنسان شعارات ينسب نفسه إليها مجرد نسبة ولكنه لا يحقق ما يقتضيه هذا الانتساب من استقامة واتباع واقتداء ، لا يلزم ذلك ، فيحذِّر رضي الله عنه من أمثال هذه الشعارات والدعايات التي لا حقيقة تحتها ولا تنطوي على مضمون صحيح ، وضرب على ذلك مثالا قال: ((**سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ**)) لكن ما هي حقيقة أمرهم قال : ((**وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**)) ؛ إذًا هناك شعارات ستُرفع بدعوى الدعوة إلى كتاب الله أو الدعوة إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن

المضمون والحقيقة أمر آخر ، ويكون الانتساب من هؤلاء إلى الكتاب أو إلى السنة مجرد دعوى ، والدعاوى إذا لم يقم عليها بينات فأهلها أدعياء ، لابد من بينة ، والبينة هي صدق الاتباع والاقتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، لا بمجرد الدعايات والشعارات المجردة عن حقيقة الاتباع والاقتداء .

وقد ترى كتبًا يُكتب عليها "عقيدة أهل السنة" ويُكتب عليها أمثال هذه الكلمات ، وإذا نظرت إلى المضمون تجد السنة شيئا وما يدعو إليه هؤلاء شيء آخر ، وكلًا يدعي وصلا لليلى، كلًا يدَّعي أن الذي عنده هو السنة وهو الحق لكن الدعوى وحدها لا تكفي ، ولا يُعرف صاحب باطل لا في قديم الزمان ولا في حديثه يقول عن نفسه أنه داعية بدعة أو يقول للناس أيها الناس اتبعوني فأنا من دعاة البدع والضلالات ، هل يوجد أحد بهذه الصفة يقول: اتبعوني أنا من دعاة البدع من دعاة الضلال ؟ أنا ممن حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أقوالهم وأعمالهم بقوله ((كل بدعة ضلالة))؟ لا أحد يقول ذلك ، بل كل صاحب بدعة يقول عن نفسه أنه صاحب سنة وأن هذا هو الحق وأن هذا هو الدين الصواب ، حتى وإن كان في قرارة نفسه يعلم أنه مبطلا ، لأن بعض دعاة البدع يعرف أنه مبطل لكن من أجل الرئاسة من أجل الزعامة ومن أجل الشهرة ومن أجل المال لا يبالي ، يغالط الناس ويلبِّس عليهم ويكذب لأجل هذه الأغراض .

إذًا لا يغتر المسلم بمجرد الدعايات وزخرفة القول وتزيين الباطل ، بل يكون معتمدًا في هذا الباب أهل القرآن وأهل السنة حقا وصدقا بالعلم والعمل والاتباع لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

ثم قال رضي الله عنه: ((**عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ**)) أي بالعلم الموروث عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ العلم الشرعي المستمد من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، عليكم بهذا العلم احفظوه وحافظوا عليه وافهموه واعتنوا بالعمل به .

((**وَإِيَّاكُمْ وَالبِدَعَ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ**))؛ إياكم والبدع :أي إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة ضلالة كما نصَّ على ذلك نبينا صلوات الله وسلامه عليه بقوله ((وكل بدعة ضلالة)) وقد تقدم الحديث معنا ، وقال عليه الصلاة والسلام ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه . قال: ((وإياكم والبدع)) أي احذروها واجتنبوها وابتعدوا عنها واحذروا أن تكونوا من أهلها .

((**والتنطع**))؛ التنطع: هو التكلف والتعمق . قال ((إياكم والتنطع والتعمق)) التعمق: هو التقعر في الأمور والتنطع هو التكلف فيها ؛ فحذر رضي الله عنه من هذا وذاك ، أي الزم السنة وتمسك بها واحذر البدع ، واحذر من تكلفات المتكلفين وتخرصات المبطلين وتنطعات المتنطعين التي يتجاوزون بها حدود سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ**)) العتيق أي القديم الذي كان عليه الناس في العهد الأول والزمن الأول زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما لم يكن دينًا في ذلك الزمان لا يكون دينا إلى أن تقوم الساعة ، كما قال الإمام

مالك رحمه الله تعالى: «من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وما لم يكن دينا زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم دينا» ولن يكون دينا إلى أن تقوم الساعة .

قال رحمه الله تعالى :

وفي الصحيحين عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالً، ا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرَّج في الصحيحين حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ**)) أي ليس قبض العلم بانتزاعه من صدور العلماء ؛ بحيث ينام العالم ويصبح ولا يجد في صدره علما ، ليس هكذا يكون انتزاع العلم ، العلم يُقبض ويُرفع ولا يجده الناس يأتي على الناس زمان لا يجدون علمًا، يُقبض العلم ، وبيَّن النبي عليه الصلاة والسلام صفة قبضه وأن قبضه بموت أهله بموت العلماء ، فكلما مات عالم محقق راسخ في العلم كان موته وقبضه قبضٌ للعلم ، لأن قبض العلم بقبض حملته .

ولهذا فإن من الفوائد العظيمة المستفادة من هذا الحديث: عِظم المصيبة على الناس بموت العلماء الأكابر وفقْد الأئمة الراسخين ، فهذا من أعظم المصائب التي يصاب بها الناس ويبتلون بها فقد العلماء ؛ لأن فقد العلماء فقد للعلم الذي كانوا يحملونه وكان الناس يأخذونه عنهم بالسؤال والفتوى والدراسة والتعليم ، فقبض العلماء قبضٌ للعلم . قال: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ)).

((**حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا**)) أي لم يبق في الناس عالم ، قُبض العلماء ولم يبق عالم ما الذي يحدث ؟

قال: ((**اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا**)) أي يتصدر لتعليم الناس وإفتائهم رؤوسا جهالا ؛ أي لا علم لهم ولا فقه لهم في دين الله تبارك وتعالى .

قال: ((**فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**)) الرؤوس الجهال عندما يتصدرون لتعليم الناس ويُستفتون في أمور دين الله تبارك وتعالى وهم لا يحملون علمًا ثم يفتون تكون فتواهم مبنية على غير علم فيَضلون ويُضلون ، يَضلون هم عن سواء السبيل ، ويُضلون أيضا غيرهم من الناس عن سواء السبيل . وهذا يبين الحال البئيسة والواقع المؤلم الذي يعيشه الناس عندما يفقدون العلماء ؛ وهذا أمر ظاهر وبيّن في المجتمعات والبلدان التي لا علماء فيها ، والناس يحتاجون إلى العلم يحتاجون إلى الفقه ، ولا تزال حاجتهم إلى ذلك متكررة كل يوم ، يريدون معرفة دينهم

الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، فإذا احتاج الناس إلى علمٍ في بلدٍ ما وليس فيه عالم ليس فيه فقيه ليس فيه من هو يفقه في نفسه دين الله تبارك وتعالى؛ فماذا يكون واقع الناس؟ وكيف تكون حالهم؟ وإذا بُلي الناس في مناطقهم بفقد العلم وبتوافر أئمة الضلال ودعاة الباطل فإن المصيبة عليهم تكون عظيمة ، عندما لا يكون في بلدهم علماء وفقهاء يبصرونهم بدين الله تبارك وتعالى ويكون في بلدهم أئمة ضلال ودعاة باطل ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ، وعندما تكون الحال في بعض البلدان بهذه الصفة تنتشر في الناس الضلالة وتروج البدع وتكثر الخرافات والفتن والشبهات ، لأنه بلد لا علماء فيه ولا فقهاء فيه ، وفيه أئمة ضلال ودعاة باطل .

وينشأ الناس لا يعلَّمون إلا هذه الأمور وهذه الضلالات والخرافات التي يقوم على تعليمها دعاة الباطل وأئمة الضلال . بينما ولله الحمد الحق بيِّن وواضح وظاهر ودلائله بيِّنه وحججه ظاهرة ، لكن ينشأ بعض الناس في مجتمعات ليس فيها علماء ، فيها دعاة باطل ودعاة ضلال فيضلونهم عن دين الله تبارك وتعالى ويوقعونهم في الخرافة يوقعونهم في الضلال ، وأيضا يحِّذرونهم من سماع الحق من أهله .

أذكر أني لقيت رجلًا جاء إلى هذه البلاد فكان بعض الشيوخ في بلده يحذرونهم من سماع العلم في هذه البلاد ويصفون أهل العلم في هذه البلاد بأوصاف وألقاب ينفِّرون منها ، فقالوا له : "انتبه أن تأخذ منهم علما أو تسمع منهم علما ، احذر أن يفتنوك وأن يخدعوك" هو نفسه يحدثني بذلك قال قالو لي:" ولهم علامة بينة إذا رأيتها تعرف هؤلاء" قلت ما هي العلامة؟ قال "دائما إذا تحدثوا يقولون قال الله قال رسوله؛ انتبه هذه علامتهم احذرهم" فيأتي المسكين الجاهل تقرأ عليه الآيات تقرأ عليه الأحاديث وقال الله وقال رسوله ويقول صدق علماؤنا جزاهم الله خيرا نصوحنا وإلا كنا تورطنا مع هؤلاء ، فلا يسمع لا الآيات ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت:٢٦] .

فهذه حال الناس عندما يبتلون في مجتمعاتهم وبلدانهم بدعاة الباطل وأئمة الضلال ، فالمصيبة والله عليهم عظيمة والبلية عليهم كبيرة ، والنبي عليه الصلاة والسلام نصح الأمة وبيَّن لهم الجادة وأوضح لهم الصراط المستقيم ، والحق ولله الحمد واضح وظاهر وبيِّن لا خفاء فيه ولا التباس .

قال رحمه الله تعالى :

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى ، علماؤهم شرٌّ من تحت أديم السماء ، مِن عندهم تخرُج الفتنة، وفيهم تعود)) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه**)) أي الاسم مسلم لكن الحقيقة شيء آخر ، وفي بعض البلدان تجد أن المسلم أو المنتسب إلى الإسلام حاله وحال الكافر سواء لا فرق بينهما لا في الأعمال ولا في الصفات ، وليس للمسلم سمة يتميز بها ولا عملٌ يتميز به ، أعماله وأعمال الكافر واحدة لا فرق بينهما ، إلا أنه إذا قيل له لست بمسلم يغضب، وليس عنده من الإسلام إلا اسم الإسلام ومجرد الانتماء إلى الإسلام ، أما حقيقة الإسلام وتطبيق الإسلام والعمل به فهذا لا يوجد فيه .

قال ((**ولا يبقى من القرآن إلا رسمه**)) الرسم أي الحروف والكتابة ومجرد القراءة لألفاظ القرآن وحروف القرآن دون فهم ودون عمل بكتاب الله تبارك وتعالى .

قال: ((**مساجدهم عامرة**)) أي يأتي الناس للصلاة لكن تحقيق الصلاة بخشوع وخضوع ومحافظة على الأركان والواجبات هذا لا يكون موجودًا فيهم .

قال: ((**مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى**)) أي الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

قال: ((**علماؤهم شرٌّ من تحت أديم السماء**)) لأنهم علماء ضلال ودعاة باطل ودعاة فتنة ودعاة بدع ، فعلماءهم شر من تحت أديم السماء .

((**مِن عندهم**)) أي عند علمائهم ((**تخرُج الفتنة ، وفيهم تعود**)) منهم تخرج وإليهم تعود .

وهذا الحديث في سنده كلام وهو غير ثابت ، لكن هذه بعض المعاني التي يؤول إليها حال بعض الناس في بعض الأزمنة وفي بعض الأوقات عند غياب تحقيق مقصود العلم ؛ ألا وهو: الاتباع والاقتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والعمل بالعلم ، وقد قال علي رضي الله عنه : «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل» ، إذا لم يكن صاحب العلم عاملًا به فإنه يرتحل عنه ولا يستفيد أيضا منه الآخرين ، والدعوة كما أنها بلسان المقال فهي بلسان الحال .

وبهذا الحديث ختم المصنف رحمه الله هذه الترجمة التي بعنوان «قبض العلم» ثم انتقل إلى ترجمة أخرى بعنوان «التشديد في طلب العلم للمراء والجدال» ، ولعلنا نقف إلى هذا القدر .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.